الجغرافيا الخيالية وتمثيلاتها : استشراق الشرقي

من كتاب الاستشراق (1978)

إدوارد سعيد

ترجمة بتصرف

أ.د. مضر خليل عمر

مقدمة المحرر

في كتابه "الاستشراق" ، طرح الناقد الأدبي إدوارد سعيد فرضية مفادها **أن المتخصصين في المناطق غير الغربية من العالم قد بنوا ورسّخوا خيالًا جماعيًا عن الشرق** . حتى في أكثر الدراسات التي يُفترض أنها موضوعية ، يُصوَّر الشرق على أنه كل ما ليس عليه الغرب : مؤنثًا ، حيث يكون الغرب ذكوريًا ؛ ضعيفًا ، حيث يكون الغرب قويًا ؛ فاسدًا ، حيث يكون الغرب صالحًا ؛ غامضًا ، حيث يكون الغرب عقلانيًا ؛ متمسكًا بالتقاليد ، حيث يكون الغرب تقدميًا . هذه التناقضات ، وفقًا لسعيد ، تعمل على بناء صورة إيجابية للغرب من خلال مقارنته بصورة مرآة سلبية : الشرق . بعبارة أخرى ، **الشرق هو الآخر بالنسبة للغرب** . وقد مكّن هذا من هيمنة الغرب سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا ، ليس فقط خلال الحقبة الاستعمارية ، بل أيضًا في الوقت الحاضر . يكفي أن ندرس التصوير السلبي العام الذي تُقدمه الصحافة الشعبية لجنوب غرب آسيا المسلم (أو للمسلمين في أوروبا والولايات المتحدة ، في هذا الشأن) لنُدرك مدى أهمية وجهة نظر سعيد حتى اليوم

تردّد صدى الاستشراق في جميع أنحاء العالم الأكاديمي ، مُشكّلاً حجر الزاوية في دراسات ما بعد الاستعمار . ومع ذلك ، كان للاستشراق صدى خاص لدى الجغرافيين ، نظرًا لحجته المكانية المتأصلة فيه . **إن فكرة أن المجتمعات البشرية تُشكّل عادةً هويات قائمة على المكان ، حيث يكون "الآخرون" "هناك" ، بينما "نحن" "هنا" ، إلى جانب فهم الأماكن والمعرفة بها كأيديولوجيات ، وليست حقائق مباشرة ، تُشكّل أساسًا لقدر كبير من الدراسات الجغرافية النقدية المعاصرة** . يدين جغرافيو الثقافة الذين يعملون على قضايا ما بعد الاستعمار ، وكتابة الرحلات ، والتنمية الاقتصادية ، بدين فكري كبير لسعيد . من أمثلة هذه الأعمال كتاب كاثرين أ. لوتز وجين ل. كولينز "قراءة ناشيونال جيوغرافيك" (1993) ، الذي يدرس البناء الاجتماعي للفهم الغربي لما يُسمى بالعالم الثالث ، وذلك من خلال صور المجلة ونصوصها التي تُضفي طابعًا غريبًا على الأشخاص والأماكن غير المألوفة ؛ بينما يُركز ديريك غريغوري ، في كتابه "الحاضر الاستعماري : أفغانستان ، فلسطين ، العراق" (2004) ، نظرة الجغرافي على فهم ما بعد 11 سبتمبر للإرهاب ، والعلاقات بين الولايات المتحدة والشرق الأوسط ، والجذور الاستعمارية للصراعات العسكرية المعاصرة .

وُلد إدوارد وديع سعيد (1935-2003) في القدس . كان والده ، وهو فلسطيني مسيحي أصبح مواطنًا أمريكيًا ، رجل أعمال ؛ بينما غرست والدته ، وهي مسيحية من أصل لبناني وفلسطيني ، في إدوارد وإخوته حب الأدب والموسيقى . سافرت العائلة الثرية بين القاهرة ، مصر ، والقدس (التي كانت آنذاك جزءًا سياسيًا من فلسطين) ، وقضت فصول الصيف في لبنان . التحق إدوارد سعيد بمدارس راقية على الطراز الاستعماري البريطاني في القاهرة والقدس حتى عام ١٩٤٨، عندما شهدت الحرب العربية الإسرائيلية ضمّ دولة إسرائيل لمنزل عائلته في القدس . في سن الخامسة عشرة ، أُرسل سعيد إلى مدرسة خاصة في ماساتشوستس ، والتحق بجامعة برينستون ، ثم أكمل دراساته العليا في جامعة هارفارد .

تُفصّل سيرته الذاتية ، "خارج المكان : مذكرات" (1999) ، سنوات سعيد الأولى ، **وتُؤكّد على شعوره الدائم بأنه غريب** . ومع ذلك ، فقد استطاع أن يُوظّف بشكل مُثمر مكانته بين الطبقات الاجتماعية المختلفة ، كمسيحي

مُتأصّل في الثقافة العربية الإسلامية ، ورجل ثريّ مُجرّد من وطنه الفلسطيني ، وعضو في عائلة أكاديمية ملكية ، ومع ذلك اتخذ موقفًا نقديًا تجاه الأكاديمية .

أدرك مُؤيدو إدوارد سعيد النزعة الإنسانية الخفية التي تُؤثّر على نقده اللاذع للإمبريالية ، ودفاعه الدؤوب عن الفلسطينيين ، ومواهبه الفكرية والفنية العديدة . على سبيل المثال ، اشتهر سعيد بموهبته الموسيقية كعازف بيانو . ومع ذلك ، سياسيًا ، وبصفته مناصرًا لدولة يهودية عربية واحدة ، وجد سعيد نفسه في موقف صعب . من ناحية ، انتقده منتقدوه المؤيدون للفلسطينيين لتنازلاته للصهيونية ، بينما ، من ناحية أخرى ، غضب خصومه المؤيدون لإسرائيل من إدانته لانتهاكات حقوق الإنسان التي ترتكبها إسرائيل ، وانتقاده للسياسة الخارجية الأمريكية في الشرق الأوسط . ومن الناحية الفكرية أيضًا ، رأى البعض أن انتقاد سعيد للاستعمار نفاق ، نظرًا لأنه استفاد افادة كبيرة من ثروة عائلته ، وتعليمه المتميز، والمكافآت التي حصدها كشخصية أكاديمية بارزة .

كان سعيد ، أستاذًا للغة الإنجليزية والأدب المقارن في جامعة كولومبيا ، ومدافعًا صريحًا عن القضية الفلسطينية ، مفكرًا عامًا بارعًا . وكاتب غزير الإنتاج ، ومن أشهر منشوراته كتابا "الاستشراق" ، المقتبس منهما هنا ، و"الثقافة والإمبريالية" (1993) . أكدت العديد من منشوراته الأكاديمية ومقابلاته ومقالاته **قناعة سعيد بأن واجب المثقف العام هو "قول الحقيقة للسلطة"** ؛ ينظر على سبيل المثال كتاب "تمثيلات المثقف" (1994) . كما نشر سعيد على نطاق واسع حول القضية الفلسطينية ؛ ينظر على سبيل المثال كتاب "قضية فلسطين" (1979) وكتاب "نهاية عملية السلام : وما بعدها" (2001) .

بالمعنى الدقيق للكلمة ، يُعدّ الاستشراق مجالًا دراسيًا مدروسًا . في الغرب المسيحي ، يُعد الاستشراق قد بدأ وجوده الرسمي بقرار مجلس كنيسة فيينا عام ١٣١٢ بإنشاء سلسلة من الكراسي في "العربية واليونانية والعبرية والسريانية في باريس وأكسفورد وبولونيا وأفينيون وسالامانكا" . ومع ذلك ، فإن أي وصف للاستشراق لا ينبغي أن يأخذ في الحسبان المستشرق المحترف وعمله فحسب ، بل أيضًا مفهوم مجال الدراسة القائم على وحدة جغرافية وثقافية ولغوية وعرقية تُسمى الشرق . وبالطبع ، تُصنع المجالات . إنها تكتسب التماسك والتكامل مع مرور الوقت لأن العلماء يُكرّسون أنفسهم بطرق مختلفة لما يبدو أنه موضوع مُتفق عليه بشكل عام . ومع ذلك ، فمن نافلة القول إن مجال الدراسة نادرًا ما يُعرّف ببساطة كما يدّعي حتى أكثر مؤيديه التزامًا - وهم عادةً علماء وأساتذة وخبراء ومن في حكمهم .

علاوة على ذلك ، يمكن أن يتغير المجال بشكل كامل ، حتى في أكثر التخصصات تقليدية مثل فقه اللغة والتاريخ واللاهوت ، مما يجعل وضع تعريف شامل للموضوع شبه مستحيل . وينطبق هذا بالتأكيد على الاستشراق ، لأسباب مثيرة للاهتمام . فالحديث عن التخصص العلمي كـ"مجال" جغرافي ، في حالة الاستشراق ، يكشف الكثير ، إذ من غير المرجح أن يتخيل أحد مجالًا مماثلًا له يُسمى الاستغراب . وقد أصبح الموقف الخاص ، وربما الغريب ، للاستشراق واضحًا بالفعل . فرغم أن العديد من التخصصات العلمية تتضمن موقفًا متخذًا تجاه ، على سبيل المثال ، المادة البشرية **(يتعامل المؤرخ مع الماضي البشري من منظور خاص في الحاضر)** ، فلا يوجد تشبيه حقيقي لاتخاذ موقف جغرافي ثابت ، كلي إلى حد ما ، تجاه مجموعة واسعة من الحقائق الاجتماعية واللغوية والسياسية والتاريخية . يركز عالم الكلاسيكيات ، والمتخصص في الرومانسية ، وحتى الأمريكي ، على جزء متواضع نسبيًا من العالم ، وليس على نصفه بالكامل .

لكن الاستشراق مجال ذو طموح جغرافي كبير . وبما أن المستشرقين انشغلوا تقليديًا بالأمور الشرقية (يُعد المتخصص في الشريعة الإسلامية ، لا يقل عن الخبير في اللهجات الصينية أو الديانات الهندية ، مستشرقًا من قبل من يسمون أنفسهم مستشرقين) ، يجب أن نتعلم قبول الحجم الهائل وغير التمييزي بالإضافة إلى قدرة شبه لا نهائية على التقسيم كإحدى السمات الرئيسية للاستشراق - وهي سمة تتجلى في مزيجه المُربك من

الغموض الإمبراطوري والتفاصيل الدقيقة . كل هذا يصف الاستشراق كتخصص أكاديمي . يخدم مصطلح "ism" في الاستشراق للإصرار على تمييز هذا التخصص عن أي نوع آخر . كانت القاعدة في تطوره التاريخي كتخصص أكاديمي هي نطاقه المتزايد ، وليس انتقائيته المتزايدة . كان مستشرقو عصر النهضة ، مثل إربينيوس وغيل لوم بوستل ، متخصصين بشكل أساسي في لغات المقاطعات التوراتية ، على الرغم من أن بوستل تفاخر بقدرته على عبور آسيا حتى الصين دون الحاجة إلى مترجم .

بشكل عام ، وحتى منتصف القرن الثامن عشر، كان المستشرقون علماء في الكتاب المقدس ، وطلابًا للغات السامية ، ومتخصصين في الإسلام ، أو ، لأن اليسوعيون فتحوا دراسة جديدة للصين ، علماء صينيون . لم يُكتشف كامل وسط آسيا أكاديميًا للاستشراق حتى أواخر القرن الثامن عشر، عندما تمكن أنكيتيل-دوبيرون والسير ويليام جونز من الكشف بوضوح عن الثروات الهائلة للغتين الأفستية والسنسكريتية . بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان الاستشراق كنزًا هائلًا من المعرفة لا يُصدق . وهناك دليلان ممتازان على هذه الانتقائية الجديدة المنتصرة . أحدهما هو الوصف الموسوعي للاستشراق تقريبًا من عام 1765 إلى عام 1850 الذي قدمه ريموند شواب في كتابه "النهضة الشرقية" .

فإلى جانب الاكتشافات العلمية للأشياء الشرقية التي صنعها محترفون متعلمون خلال هذه الفترة في أوروبا ، كان هناك شبه وباء للاستشراق أثر على كل شاعرٍ وكاتب مقالٍ وفيلسوفٍ بارزٍ في تلك الفترة . يرى شواب أن "الشرقية" تُشير إلى حماسٍ هاوٍ أو محترفٍ لكل ما هو آسيوي ، وهو ما كان مرادفًا بشكل رائع للغريب والغامض والعميق والمؤثر . لذلك ، كان المستشرق في القرن التاسع عشر إما باحثًا (عالمًا بالحضارة الصينية ، أو عالمًا بالإسلام ، أو عالمًا بثقافة الهندو-أوروبية) أو متحمسًا موهوبًا (هوغو في كتاب "الشرقيات" ، وغوته في ديوان الاستشراق الغربي) ، أو كليهما (ريتشارد بيرتون ، وإدوارد لين ، وفريدريش شليغل).

يوجد المؤشر الثاني لكيفية شمولية الاستشراق منذ مجمع فيينا في سجلات القرن التاسع عشر لهذا المجال . وأكثرها شمولًا هو كتاب جول مول "خمسة أعوام من تاريخ الدراسات الشرقية" ، وهو سجل من مجلدين يضم كل ما هو جدير بالملاحظة في مجال الاستشراق بين عامي 1840 و1867 . كان مول سكرتير الجمعية الآسيوية في باريس ، ولأكثر من النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت باريس عاصمة عالم الاستشراق... نادرًا ما نجد أي عمل قام به باحث أوروبي يتناول آسيا خلال تلك السنوات السبع والعشرين إلا ويدرجه موهل ضمن "الدراسات الشرقية" . بالطبع ، تتعلق أعماله بالمنشورات ، لكن نطاق المواد المنشورة التي تهم الباحثين الاستشراقيين مذهل . العربية ، ولهجات هندية لا تُحصى ، والعبرية ، والبهلوية ، والآشورية ، والبابلية ، والمنغولية ، والصينية ، والبورمية ، وبلاد الرافدين ، والجاوية : قائمة الأعمال اللغوية التي تُعد استشراقية لا تُحصى . علاوة على ذلك ، يبدو أن الدراسات الاستشراقية تغطي كل شيء ، من تحرير النصوص وترجمتها إلى الدراسات النقدية ، والأنثروبولوجية ، والأثرية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والتاريخية ، والأدبية ، والثقافية في كل حضارة آسيوية وشمال أفريقية معروفة ، قديمة كانت أم حديثة...

مع ذلك ، كان لمثل هذه الانتقائية نقاط ضعفها . اهتم المستشرقون الأكاديميون في الغالب بالفترة الكلاسيكية لأي لغة أو مجتمع درسوه . ولم يُولَ اهتمام كبير للدراسة الأكاديمية للشرق الحديث ، أو الفعلي ، إلا في أواخر القرن . علاوة على ذلك ، كان الشرق المدروس عالمًا نصيًا إلى حد كبير؛ وكان تأثير الشرق من خلال الكتب والمخطوطات... حتى أن العلاقة بين المستشرق والشرق كانت نصية ، لدرجة أنه يُقال إن بعض المستشرقين الألمان في أوائل القرن التاسع عشر قد تخلصوا تمامًا من ذوقهم الاستشراقي عندما رأوا لأول مرة تمثالًا هنديًا بثمانية أذرع . عندما كان المستشرق المتعلم يسافر إلى بلد تخصصه ، كان ذلك دائمًا مصحوبًا بمبادئ مجردة لا تتزعزع حول "الحضارة" التي درسها ؛ نادرًا ما اهتم المستشرقون بأي شيء

سوى إثبات صحة هذه "الحقائق" البالية من خلال تطبيقها ، دون نجاح كبير، على السكان الأصليين غير المدركين ، وبالتالي المنحطين .

وأخيرًا ، فإن قوة الاستشراق ونطاقه لم يُنتجا قدرًا لا بأس به من المعرفة الإيجابية الدقيقة عن الشرق فحسب ، بل أنتج أيضًا نوعًا من المعرفة من الدرجة الثانية - كامنًا في أماكن مثل الحكاية "الشرقية" ، وأساطير الشرق الغامض ، ومفاهيم الغموض الآسيوي - له حياة خاصة به ، وهو ما أسماه ف. ج. كيرنان بجدارة "حلم أوروبا الجماعي بالشرق" . إحدى النتائج السعيدة لذلك هي أن عددًا لا يُحصى من الكُتّاب المهمين خلال القرن التاسع عشر كانوا من المتحمسين للشرق : من الصحيح تمامًا ، في رأيي ، الحديث عن نوع من الكتابة الاستشراقية كما هو موضح في أعمال هوغو ، وغوته ، ونيرفال ، وفلوبير، وفيتزجيرالد ، وغيرهم . إلا أن ما يصاحب هذه الأعمال حتمًا هو نوع من الأساطير العابرة للحدود عن الشرق ، شرق لا ينبع فقط من المواقف المعاصرة والتحيزات الشعبية ، بل أيضًا مما أسماه فيكو "غرور الأمم" والعلماء... واليوم ، أصبح المستشرق أقل ميلًا إلى وصف نفسه بالمستشرق مما كان عليه في أي وقت تقريبًا حتى الحرب العالمية الثانية . ومع ذلك ، ما يزال هذا الوصف مفيدًا ، كما هو الحال عندما تُنشئ الجامعات برامج أو أقسامًا للغات أو الحضارات الشرقية .

توجد كلية للدراسات الشرقية في أكسفورد ، وقسم للدراسات الشرقية في برينستون . في عام ١٩٥٩، فوضت الحكومة البريطانية لجنةً "لمراجعة التطورات في الجامعات في مجالات الدراسات الشرقية والسلافية ودراسات أوروبا الشرقية وأفريقيا... والنظر في مقترحات التطوير المستقبلي وتقديم المشورة بشأنها" . بدا تقرير هايتر، كما سُمي عند صدوره عام ١٩٦١، غير منزعج من التسمية الواسعة لكلمة "شرقي" ، والتي وُجد أنها تُستخدم بشكل مفيد في الجامعات الأمريكية أيضًا . حتى أن أعظم الأسماء في الدراسات الإسلامية الأنجلو-أمريكية الحديثة ، إتش. إيه. آر. جيب ، فضّل تسمية نفسه مستشرقًا على مستعرب .

جيب نفسه ، بطبعه الكلاسيكي ،كان بإمكانه استخدام المصطلح الجديد القبيح "دراسة المنطقة" للاستشراق كوسيلة لإظهار أن دراسات المنطقة والاستشراق في النهاية مسميات جغرافية مترادفة . لكن هذا ، في رأيي ، يُخفي ، ببراعة ، علاقة أكثر إثارة للاهتمام بين المعرفة والجغرافيا . أودُّ أن أُفكِّرَ في هذه العلاقة بإيجاز . فرغم تشتت انتباه عددٍ كبيرٍ من الرغبات والدوافع والصور الغامضة ، يبدو أن العقل يُصوغ بإصرارٍ ما أسماه [عالم الأنثروبولوجيا] كلود ليفي شتراوس علمَ الملموس . فعلى سبيل المثال ، تُحدِّد قبيلةٌ بدائيةٌ مكانًا و وظيفةً وأهميةً مُحدَّدةً لكلِّ نوعٍ من النباتات الورقية في بيئتها المُباشرة . العديدُ من هذه الأعشاب والزهور ليس لها استخدامٌ عمليٌّ ؛ لكنَّ النقطة التي يُؤكِّدها ليفي شتراوس هي **أنَّ العقلَ يتطلَّبُ النظام ، ويتحققُ النظامُ بتمييز كلِّ شيءٍ وتسجيلِه، ووضعِ كلِّ ما يُدركُه العقلُ في مكانٍ آمنٍ يُمكنُ العثورُ عليه، وبالتالي إعطاءُ الأشياءِ دورًا ما لتلعبَه في نظامِ الأشياءِ والهوياتِ التي تُشكِّلُ البيئةَ**. لهذا النوعِ من التصنيفِ البدائيِّ منطقٌ خاصٌّ به ، لكنَّ قواعدَ... إن المنطق الذي يُعد فيه السرخس الأخضر في مجتمع ما رمزًا للنعمة ، ويُعد في مجتمع آخر شريرًا ، ليس منطقيًا ولا عالميًا على نحوٍ متوقع . هناك دائمًا قدرٌ من التعسف المحض في طريقة رؤية التمييز بين الأشياء . ومع هذه التمييزات ، تنحدر القيم التي ، لو أمكننا استقصاء تاريخها بالكامل ، لكان من المحتمل أن يُظهر القدر نفسه من التعسف .

هذا واضحٌ تمامًا في حالة الموضة . لماذا تظهر الباروكات ، وأطواق الدانتيل ، والأحذية ذات الإبزيم العالي ، ثم تختفي ، على مدى عقود ؟ بعض الإجابات يتعلق بالفائدة ، وبعضها الآخر بالجمال المتأصل في الموضة . ولكن إذا اتفقنا على أن كل شيء في التاريخ ، مثل التاريخ نفسه ، من صنع البشر، فسنُدرك مدى إمكانية إسناد أدوار ومعانٍ للعديد من الأشياء أو الأماكن أو الأزمنة ، لا تكتسب صلاحيةً موضوعية إلا بعد

تحديد هذه الأدوار . ينطبق هذا بشكل خاص على الأشياء غير الشائعة نسبيًا ، مثل الأجانب ، أو المسوخ ، أو السلوك "الشاذ" .

من الممكن تمامًا القول إن بعض الأشياء المميزة من صنع العقل ، وأن هذه الأشياء ، وإن بدت وكأنها موجودة موضوعيًا ، إلا أنها مجرد واقع خيالي . فمجموعة من الناس الذين يعيشون على بضعة أفدنة من الأرض سيضعون حدودًا بين أرضهم ومحيطها المباشر والإقليم الواقع خلفها ، والذي يسمونه "أرض البرابرة" . بعبارة أخرى ، فإن هذه الممارسة العالمية المتمثلة في تحديد المرء في ذهنه مساحة مألوفة "لنا" ومساحة غير مألوفة وراء "لنا" "لهم" هي طريقة لإنشاء تمييزات جغرافية يمكن أن تكون تعسفية تمامًا . أستخدم كلمة "تعسفية" هنا لأن الجغرافيا الخيالية لنوع "أرضنا - أرض البرابرة" لا تتطلب من البرابرة إدراك هذا التمييز . يكفينا أن نرسم هذه الحدود في عقولنا ؛ فيصبحون "هم" "هم" تبعًا لذلك ، وتُصنف أراضيهم وعقليتهم على أنها مختلفة عن "أرضنا" .

إلى حد ما ، يبدو أن المجتمعات الحديثة والبدائية تستمد إحساسًا بهوياتها بشكل سلبي . كان من المرجح جدًا أن يشعر الأثيني في القرن الخامس بأنه ليس بربريًا بقدر ما كان يشعر بأنه أثيني . **ترافق الحدود الجغرافية الحدود الاجتماعية والعرقية والثقافية بطرق متوقعة** . ومع ذلك ، غالبًا ما يستند شعور الشخص بأنه ليس أجنبيًا إلى فكرة غير دقيقة عما هو "هناك" ، خارج أرضه . كل يبدو أن أنواعًا من الافتراضات والارتباطات والخيالات تزدحم في الفضاء غير المألوف خارج نطاق المرء . كتب الفيلسوف الفرنسي غاستون باشلار تحليلًا لما أسماه شعرية الفضاء . قال إن داخل المنزل يكتسب إحساسًا بالألفة والسرية والأمان ، سواء أكان حقيقيًا أم متخيلًا ، بفضل التجارب التي تبدو مناسبة له .

الفضاء الموضوعي للمنزل - زواياه وممراته وقبوه وغرفه - أقل أهمية بكثير مما يتمتع به شعريًا ، وهو عادةً صفة ذات قيمة خيالية أو مجازية يمكننا تسميتها والشعور بها : وهكذا قد يكون المنزل مسكونًا ، أو أشبه بالمنزل ، أو أشبه بالسجن ، أو سحريًا . وهكذا يكتسب الفضاء معنى عاطفيًا ، بل وعقلانيًا ، من خلال نوع من العملية الشعرية ، حيث تتحول المسافات الشاغرة أو المجهولة للمسافة إلى معنى لنا هنا . وتحدث العملية نفسها عندما نتعامل مع الزمن . كثيرٌ مما نربطه ، أو حتى نعرفه ، عن فتراتٍ مثل "الزمان الغابر" أو "البداية" أو "نهاية الزمان" هو شعرٌ مُختلق . بالنسبة لمؤرخ مصر في عصر المملكة الوسطى ، تحمل عبارة "الزمان الغابر" معنىً واضحًا للغاية ، لكن حتى هذا المعنى لا يُبدد تمامًا ذلك الخيال ، شبه الخيالي ، الكامن في زمنٍ مختلفٍ تمامًا وبعيدٍ عن زمننا .

فلا شك أن الجغرافيا والتاريخ الخياليين يُساعدان العقل على تعزيز إحساسه بذاته من خلال إضفاء طابعٍ دراميٍّ على المسافة والاختلاف بين ما هو قريبٌ منه وما هو بعيد . وهذا لا يقلُّ صدقًا عن المشاعر التي نشعر بها غالبًا بأننا كنا سنكون أكثر "راحةً" في القرن السادس عشر أو في تاهيتي . ومع ذلك ، لا جدوى من التظاهر بأن كل ما نعرفه عن الزمان والمكان ، أو بالأحرى التاريخ والجغرافيا ، هو خيالٌ أكثر من أي شيءٍ آخر . هناك أمورٌ مثل التاريخ الإيجابي والجغرافيا الإيجابية ، والتي تُشير إليها إنجازاتٌ مبهرة في أوروبا والولايات المتحدة . يعرف العلماء الآن عن العالم ، ماضيه وحاضره ، أكثر مما كانوا يعرفونه...

ومع ذلك ، فهذا لا يعني أنهم يعرفون كل ما يجب معرفته ، ولا الأهم من ذلك ، أن ما يعرفونه قد بدد فعليًا المعرفة الجغرافية والتاريخية الخيالية التي كنتُ أتأملها . لسنا بحاجة إلى أن نقرر هنا ما إذا كان هذا النوع من المعرفة الخيالية يتغلغل في التاريخ والجغرافيا ، أو ما إذا كان يتجاوزهما بطريقة ما . دعنا نقول فقط في الوقت الحالي إنها موجودة كشيء أكثر مما يبدو أنه مجرد معرفة إيجابية . منذ أقدم العصور تقريبًا في أوروبا ، كان الشرق أكثر مما كان معروفًا تجريبيًا عنه . على الأقل حتى أوائل القرن الثامن عشر . كان

الفهم الأوروبي لنوعٍ من الثقافة الشرقية ، الثقافة الإسلامية ، جاهلاً ولكنه معقد . فبعض الارتباطات بالشرق - التي لم تكن جاهلةً تمامًا ، ولم تكن مُلِمَّةً تمامًا - تبدو دائمًا وكأنها قد تجمَّعت حول فكرة الشرق .

لننظر أولًا إلى الخط الفاصل بين الشرق والغرب . يبدو أنه قد أصبح واضحًا بحلول زمن الإلياذة . سيظل الجانبان اللذان يُميّزان الشرق عن الغرب... هما دافعان أساسيان للجغرافيا الخيالية الأوروبية . يُرسم خطٌّ بين قارتين : أوروبا قوية و واضحة ؛ وآسيا مهزومة وبعيدة... أوروبا هي التي تُفصِّل الشرق ؛ هذا الفصْل... ليس من امتياز مُحرِّك الدمى ، بل من امتياز مُبدع حقيقي ، تُمثِّل قوته المُحيية ، وتُحيي ، وتُشكِّل الفضاء الصامت والخطير وراء الحدود المألوفة . ثانيًا ، هناك فكرة الشرق كخطر مُلِحّ . تُقوّض العقلانية بفعل تجاوزات الشرق ، تلك الأضداد الجذابة بشكلٍ غامض لما يبدو قيمًا طبيعية... ستُؤخذ الأسرار الشرقية على محمل الجدّ فيما بعد ، لا سيما لأنها تتحدى العقل الغربي العقلاني لتمارين جديدة لطموحه وقوته الدائمين.

لكن انقسامًا كبيرًا ، كما هو الحال بين الغرب والشرق ، يؤدي إلى انقسامات أصغر، لا سيما وأن المشاريع الحضارية الاعتيادية تُثير أنشطةً خارجيةً كالسفر والغزو وتجارب جديدة . في اليونان وروما الكلاسيكيتين ، أضاف الجغرافيون والمؤرخون والشخصيات العامة مثل قيصر والخطباء والشعراء إلى رصيد المعرفة التصنيفية التي تفصل بين الأعراق والمناطق والأمم والعقول ؛ وكان الكثير من ذلك أنانيًا ، ووُجد لإثبات أن الرومان واليونانيين كانوا متفوقين على أنواع أخرى من البشر. لكن الاهتمام بالشرق كان له تقاليده الخاصة في التصنيف والتسلسل الهرمي . فمنذ القرن الثاني قبل الميلاد على الأقل ، لم يفت على أي رحالة أو حاكم غربي طموح ذي نظرة شرقية أن هيرودوت – رحالة ، ومؤرخ فضولي لا ينضب - والإسكندر - الملك المحارب ، والفاتح العلمي - قد زارا الشرق من قبل .

كان الشرق لذلك ، قُسِّمت إلى عوالم معروفة سابقًا ، زارها هيرودوت والإسكندر، بالإضافة إلى أتباعهما ، وعوالم لم تكن معروفة سابقًا ، زارها ، غُزيت . أكملت المسيحية تأسيس عوالم رئيسية داخل المشرق : كان هناك شرق قريب وشرق بعيد ، شرق مألوف... وشرق جديد . لذلك ، تناوب المشرق في جغرافية العقل بين كونه عالمًا قديمًا يعود إليه المرء ، كما يعود إلى جنة عدن أو الفردوس ، ليُنشئ نسخة جديدة من القديم ، ومكانًا جديدًا كليًا يأتي إليه المرء كما جاء كولومبوس إلى أمريكا ، ليُنشئ عالمًا جديدًا (مع أن كولومبوس نفسه ، ومن المفارقات ، اعتقد أنه اكتشف جزءًا جديدًا من العالم القديم) . من المؤكد أن أيًا من هذين المشرقين لم يكن شيئًا واحدًا محضًا : إن تذبذبهما ، وإيحاءاتهما المغرية ، وقدرتهما على تسلية العقل وإرباكه ، هي الأمور المثيرة للاهتمام .

تأمل كيف أصبح الشرق ، وخاصة الشرق الأدنى ، معروفًا في الغرب بأنه نقيضه المكمل منذ العصور القديمة . كان هناك الكتاب المقدس وظهور المسيحية ؛ وكان هناك رحالة مثل ماركو بولو الذي رسم طرق التجارة و وضع نموذجًا لنظام منظم للتبادل التجاري ، ومن بعده لودوفيكو دي فارتيما وبيترو ديلا فالي ؛ وكان هناك كتّاب خرافات مثل ماندفيل ؛ وكانت هناك حركات الفتح الشرقية المهيبة ، وخاصة الإسلام بالطبع ؛ وكان هناك الحجاج المجاهدون ، وخاصة الصليبيون . إجمالًا ، يتم بناء أرشيف منظم داخليًا من الأدبيات التي تنتمي إلى هذه التجارب . من هذا ينشأ عدد محدود من التغليفات النمطية : الرحلة ، التاريخ ، الحكاية ، الصورة النمطية ، المواجهة الجدلية . هذه هي العدسات التي يُختبر من خلالها الشرق ، وهي تُشكل لغة وإدراك وشكل اللقاء بين الشرق والغرب .

ومع ذلك ، فإن ما يُضفي على هذا العدد الهائل من اللقاءات بعض الوحدة هو التردد الذي تحدثت عنه سابقًا . شيء غريب وبعيد بشكل واضح يكتسب ، لسبب أو لآخر، مكانة مألوفة أكثر منه أقل . يميل المرء إلى التوقف عن الحكم على الأشياء إما على أنها جديدة تمامًا أو معروفة تمامًا ؛ فتظهر فئة وسيطة جديدة ، فئة تسمح للمرء برؤية أشياء جديدة ، أشياء تُرى لأول مرة ، كنسخ من شيء معروف سابقًا . في جوهرها ،

هذه الفئة ليست طريقة لتلقي معلومات جديدة بقدر ما هي طريقة لـ السيطرة على ما يبدو تهديدًا لوجهة نظر راسخة للأشياء . إذا اضطر العقل فجأةً للتعامل مع ما يتطلبه شكل جديد جذريًا من أشكال الحياة - كما ظهر الإسلام لأوروبا في أوائل العصور الوسطى - فإن الاستجابة عمومًا متحفظة ودفاعية . يُحكم على الإسلام بأنه نسخة جديدة مزيفة من تجربة سابقة ، وهي المسيحية في هذه الحالة . يُكتم التهديد ، وتفرض القيم المألوفة نفسها ، وفي النهاية يُخفف العقل الضغط عليه من خلال تقبّل الأشياء لنفسه على أنها إما "أصلية" أو "مكررة" . بعد ذلك ، يُعالج الإسلام : تُوضع حداثته وإيحاءاته تحت السيطرة بحيث تُصنع الآن تمييزات دقيقة نسبيًا ، كان من المستحيل إجراؤها لو تُركت حداثة الإسلام الخام دون مراقبة .

لذلك ، يتأرجح الشرق عمومًا بين ازدراء الغرب لما هو مألوف ورعشة فرحه بالحداثة - أو خوفه منها . ومع ذلك ، فيما يتعلق بالإسلام ، كان الخوف الأوروبي ، إن لم يكن الاحترام دائمًا ، هو المطلوب . بعد وفاة محمد عام 632 ، نمت الهيمنة العسكرية ، ثم الثقافية والدينية للإسلام ، بشكل هائل . سقطت بلاد فارس وسوريا ومصر أولًا ، ثم تركيا ، ثم شمال إفريقيا في أيدي الجيوش الإسلامية ؛ وفي القرنين الثامن والتاسع ، غُزيت إسبانيا وصقلية وأجزاء من فرنسا . وبحلول القرنين الثالث عشر والرابع عشر، وصل حكم الإسلام إلى أقصى الشرق ، حتى الهند وإندونيسيا والصين . ولم تستطع أوروبا الرد على هذا الهجوم الاستثنائي إلا بالخوف ونوع من الرهبة . لم يُبدِ المؤلفون المسيحيون الذين شهدوا الفتوحات الإسلامية اهتمامًا يُذكر بعلم المسلمين وثقافتهم الرفيعة وعظمتهم المتوارثة... ما شعر به المسيحيون عادةً تجاه الجيوش الشرقية هو أنها "تشبه سربًا من النحل ، ولكن بيدٍ ثقيلة... دمّرت كل شيء" : هكذا كتب إرشمبرت ، رجل دين في مونتي كاسينو في القرن الحادي عشر.

ولم يكن من قبيل الصدفة أن يرمز الإسلام إلى الرعب والدمار والشياطين وجحافل البرابرة المكروهين . **<u>بالنسبة لأوروبا ، كان الإسلام صدمةً دائمة</u>** . حتى نهاية القرن السابع عشر، كان "الخطر العثماني" كامنًا بأوروبا ليمثل خطرًا دائمًا على الحضارة المسيحية بأكملها ، ومع مرور الوقت ، أدرجت الحضارة الأوروبية هذا الخطر وتقاليده وأحداثه العظيمة وشخصياته وفضائله ورذائله كشيءٍ منسوجٍ في نسيج الحياة... النقطة المهمة هي أن ما بقي سائدًا في الإسلام كان بالضرورة... نسخة مُصغّرة من تلك القوى الخطيرة العظيمة التي كانت ترمز إليها أوروبا... لطالما كان التمثيل الأوروبي للمسلمين ، أو العثمانيين ، أو العرب وسيلةً للسيطرة على الشرق المهيب ، وإلى حدٍّ ما ، ينطبق الأمر نفسه على أساليب المستشرقين المعاصرين المتعلمين ، الذين لا يقتصر موضوعهم على الشرق نفسه ، بل على ما يُعرّف به الشرق ، وبالتالي يُخفّف من رهبة القارئ الغربي .

لا يوجد ما هو مثير للجدل أو مُستهجن بشكلٍ خاص في مثل هذه التدجينات للغرابة ؛ فهي تحدث بين جميع الثقافات ، بالتأكيد ، وبين جميع البشر. ومع ذلك ، فإن وجهة نظري هي التأكيد على حقيقة أن المستشرق ، بقدر ما يفعل أي شخص في الغرب الأوروبي فكّر في الشرق أو عايشه ، قام بهذا النوع من العمليات العقلية . ولكن الأهم من ذلك هو محدودية المفردات والصور التي تفرض نفسها كنتيجة لذلك . إن استقبال الإسلام في الغرب مثالٌ واضحٌ على ذلك . كان أحد القيود التي أثّرت على المفكرين المسيحيين الذين حاولوا فهم الإسلام هو القيد التشبيهي ؛ فبما أن المسيح هو أساس الإيمان المسيحي ، فقد افتُرض - خطأً - أن محمدًا كان للإسلام كما كان المسيح للمسيحية . ومن هنا جاء الاسم الجدلي "المحمدية" الذي أُطلق على الإسلام ، واللقب التلقائي "المُحتال" الذي أُطلق على محمد... أصبح الإسلام صورة... لم تكن وظيفتها تمثيل الإسلام في حد ذاته بقدر ما كانت تمثيله للمسيحيين في العصور الوسطى .

يكتسب وصفنا الأولي للاستشراق كمجال معرفي الآن طابعًا ملموسًا جديدًا . فالمجال غالبًا ما يكون مساحة مغلقة . أما فكرة التمثيل فهي فكرة مسرحية : فالشرق هو المسرح الذي يُحصر فيه الشرق بأكمله .

وعلى هذا المسرح ستظهر شخصيات دورها تمثيل الكل الأكبر الذي تنبثق منه . يبدو الشرق إذن ليس امتدادًا غير محدود يتجاوز العالم الأوروبي المألوف ، بل هو بالأحرى مجال مغلق ، مسرح مُلحق بأوروبا . والمستشرق ليس إلا متخصصًا في المعرفة التي تتحمل أوروبا مسؤوليتها ، تمامًا كما يتحمل الجمهور مسؤولية (واستجابة) تاريخيًا وثقافيًا للأعمال الدرامية التي يُبدعها الكاتب المسرحي تقنيًا .

وفي أعماق هذا المسرح الشرقي ، تكمن ذخيرة ثقافية هائلة ، تُستحضر فيها عناصر فردية عالمًا غنيًا بشكل رائع : أبو الهول ، كليوباترا ، عدن ، طروادة ، سدوم وعمورة ، عشتروت ، إيزيس و أوزوريس ، سبأ ، بابل ، الجن ، المجوس ، نينوى ، الكاهن يوحنا ، محمد ، وعشرات غيرها ؛ بيئات ، في بعض الحالات أسماء فقط ، نصفها متخيلة ونصفها معروف ؛ وحوش ، شياطين ، أبطال ؛ أهوال ، ملذات ، رغبات . تغذى الخيال الأوروبي على نطاق واسع من هذه الذخيرة : بين العصور الوسطى والقرن الثامن عشر، استقى مؤلفون بارزون مثل أريوستو، ميلتون ، مارلو، تاسو، شكسبير، سرفانتس ، ومؤلفي أغنية رولان وقصيدة السيد من ثروات الشرق في إنتاجاتهم ، بطرق شحذت الخطوط العريضة للصور والأفكار والشخصيات التي سكنته . بالإضافة إلى ذلك ، فإن قدرًا كبيرًا مما عد دراسات استشراقية متعمقة في أوروبا قد وظّف الأساطير الأيديولوجية ، حتى مع بروز المعرفة بصدق .

هذه العملية التعليمية برمتها ليست صعبة الفهم ولا صعبة التفسير . ينبغي للمرء أن يتذكر مجددًا أن جميع الثقافات تفرض تصحيحات على الواقع الخام ، محولةً إياه من أشياء عائمة إلى وحدات معرفية . المشكلة ليست في حدوث هذا التحول . فمن الطبيعي تمامًا أن يقاوم العقل البشري هجوم الغرابة غير المعالجة عليه ؛ لذلك ، لطالما مالت الثقافات إلى فرض تحولات كاملة على الثقافات الأخرى ، متقبلةً هذه الثقافات الأخرى ليس كما هي ، بل كما ينبغي أن تكون ، لمصلحة المتلقي . أما بالنسبة للغربيين ، فقد كان الشرقي دائمًا بمثابة جانب من جوانب الغرب ؛ فبالنسبة لبعض الرومانسيين الألمان ، على سبيل المثال ، كان الدين الهندي في جوهره نسخة شرقية من وحدة الوجود الألمانية المسيحية . ومع ذلك ، فإن المستشرق يحرص دائمًا على تحويل الشرق من شيء إلى شيء آخر: يفعل ذلك لنفسه ، من أجل ثقافته ، وفي بعض الحالات لما يعتقد أنه من أجل الشرقي . عملية التحويل هذه عملية منضبطة : تُدرّس ، ولها مجتمعاتها ودورياتها وتقاليدها ومفرداتها وبلاغتها ، وكل ذلك مرتبط بشكل أساسي بالمعايير الثقافية والسياسية السائدة في الغرب ومُزوّد بها .

الجغرافيا الخيالية... تُضفي شرعية على مفردات ، وعالم من الخطاب التمثيلي الخاص بمناقشة وفهم الإسلام والشرق . ما يعده هذا الخطاب حقيقة - أن محمدًا دجال ، لأنه مثال - هو أحد مكونات الخطاب ، عبارة يُجبر الخطاب المرء على الإدلاء بها كلما ذُكر اسم محمد . تكمن وراء جميع وحدات الخطاب الاستشراقي المختلفة - والتي أعني بها ببساطة المفردات المستخدمة كلما كُتب أو حُكي عن الشرق - مجموعة من الشخصيات التمثيلية ، أو المجازات . هذه الشخصيات بالنسبة للشرق الفعلي - أو الإسلام ، وهو ما يهمني هنا - كما أن الأزياء المنمقة بالنسبة لشخصيات المسرحية... بعبارة أخرى ، لسنا بحاجة إلى البحث عن توافق بين اللغة المستخدمة لتصوير الشرق والشرق نفسه ، ليس لأن اللغة غير دقيقة ، بل لأنها لا تحاول حتى أن تكون دقيقة . ما تحاول فعله... هو في الوقت نفسه وصف الشرق بأنه غريب ، ودمجه تخطيطيًا على خشبة مسرحية ، جمهورها ومديرها وممثلوها هم من أوروبا ، وأوروبا فقط .

من الناحية الفلسفية ، فإن نوع اللغة والفكر والرؤية الذي أسميه الاستشراق عمومًا هو شكل من أشكال الواقعية الجذرية ؛ فكل من يستخدم الاستشراق ، وهو عادة التعامل مع الأسئلة والأشياء والصفات والمناطق التي تُعد شرقية ، سيُحدد ، يُسمي ، يُشير إلى ، يُثبت ما يتحدث عنه أو يفكر فيه بكلمة أو عبارة ، والتي تُعد حينها إما مُكتسبة ، أو ببساطة ، أنها حقيقة . من الناحية البلاغية ، الاستشراق تشريحي وتعدادي تمامًا : استخدام مفرداته هو الانخراط في تفصيل وتقسيم الأشياء الشرقية إلى أجزاء قابلة للإدارة . **من الناحية**

النفسية ، الاستشراق هو شكل من أشكال جنون العظمة ، معرفة من نوع آخر، لنقل ، من معرفته التاريخية العادية . هذه بعض نتائج ، في رأيي ، الجغرافيا الخيالية والحدود الدرامية التي ترسمها...